مقام المشاهدة وعين الجمع (*)

﴿ الدرجة العليا في المشاهدة والفرق فيها بين التوحيد وتخيلات وحدة الوجود ﴾

قال (١) ﴿ الدرجة الثالثة مشاهدة جمع تجذب الى عين الجمع ، مالكة لصحة الورود ، راكبة بحر الوجود ﴾ صاحب هذه الدرجة أثبت عند الشيخ في مقام المشاهدة ، وأمكن في مقام الجمع الذي هو حضرة الوجود ، وأملك لحمل ما يرد عليه في مقامه من أنواع الكشوفات و المعارف ، ولذلك كانت مشاهدته مالكة لصحة الورود ، أي تشهد لنفسها بصحة ورودها الى حضرة الجمع ، وتشهد كلها لها بالصدق ، ويشهد المشهود أيضا لها بذلك ، فلا يبقى عندها احتمال شك ولا ريب

وهذا أيضا مورد للملحد والموحد ، فالملحد يقول : مشاهدة الجمع هي مشاهدة الوجود الواحد الجامع لجميع المعاني والصور والقوى والافعال والاسماء . وحضرة الجمع عنده هي حضرة هذا الوجود ، ومشاهدة الجمع تجذب الى عينه — قال — وصفة هذا الجذب أن يحل الحق تعالى عقد خليقته بيد حقيقته ، فيرجع النور الفائض على صورة خليقته الى أصله ، ويرجع العبد الى عدميته ، فيبقى الوجود للحق ، والفناء للخلق ، ويقيم الحق تعالى وصفا من أوصافه نائبا عنه في استجلاء ذاته ، فيكون الحق هو المشاهد ذاته بذاته ، في طور من أطوار ظهوره وهي مرتبة عبده ، فاذا ثبت الحق تعالى عبده بعد نفيه ومحوه ، وابقاه بعد فنائه ، فعاد كما يعود السكران الى صحوه — وجد في ذات أسرار ربه ، وطور صفاته ، وحقائق ذاته ، ومعالم وجوده ، ومطارح أشعة نوره ، ووجد خليقته أسماء مسمى ذاته وعوده اليه ، فيرى العبد ثبوت ذلك الاسم في حضرة سائر الاسماء المشيرة بدلالتها الى الوجود المنزه الاصل الموهم الفرع ، فيودي استصحاب النظر الى أصله ، أن الفرع لم يفارقه هو الا بشكله والشكل على اختلاف ضروبه ، فمعنى عدمي لتعين امكانه في وجوبه

*) مقتبس من الجزء الثالث من كتاب مدارج السالكين (١) يعني صاحب كتاب منازل السائرين

فانظر مافي هذا الكلام من الالحاد والكفر الصراح، وجعل عين المخلوق نفس عين الخالق ، وان الرب سبحانه أقام نفس أوصافه نائبة عنه في استجلاء ذاته ، وأنه شاهد ذاته بذاته في مراتب الخلق ، وان الانسان اذا صحا من سكره وجد في ذاته حقائق ذات الرب ، ووجد خليقته أسماء مسمى ذاته ، فيرى ثبوت ذلك الاسم في حضرة سائر الاسماء المشيرة بدلالتها الى الوجود « المنزه الاصل » يعني عن الانقسام والتكثر « الموهم الفرع » يعني الذي يوهم فروعه وتكثر مظاهره واختلاف اشكاله انه متعدد ، وانما هو وجود واحد ، والاشكال على اختلاف ضروبها أمور عدمية، لانها ممكنة وامكانها ينفي في وجوبها ، فلم يبق الا وجوب واجب الوجود ، وهو واحد وان اختلفت الاشكال التي ظهر فيها، والاسماء التي اشارت اليه، فالاتحادي يشاهد وجودا واحدا جامعا لجميع الصور والانواع والاجناس فاض عليها كلها فظهر فيها بحسب قوابلها واستعداداتها ، وذلك الشهود يجذبه الى انحلال عزمه عن التقيد بمعبود معين أو عبادة معينة، بل يبقى معبوده الوجود المطلق الساري في الموجودات بأي معنى ظهر وفي أي ماهية تحقق ، فلا فرق عنده بين السجود للصنم والشمس والقمر والنجوم وغيرها كما قال شاعر القوم (١)

وان خر للاحجار في البيد عاكف ... فلا تعد بالانكار بالعصبية
وان عبد النار المجوس وما انطفت ... كما جاء في الاخبار مذ الف حجة
فما عبدوا غيري وما كان قصدهم ... سواي وان لم يظهروا عقد نية
وما عقد الزنار حكما سوى يدي ... وان حل بالاقرار لي فهي بيعتي

وكما قال عارفهم (٢) : واعلم ان الحق في كل معبود وجها يعرفه من عرفه ويجهله من جهله ، فالعارف يعرف من عبد وفي أي صورة ظهر — قال — (وقضى ربك ان لا تعبدوا الا اياه) — قال — رماقضى الله شيئا الا وقع (٣) وما عبد غير الله في كل معبود . فهذا مشهد الملحد

---

(١) كتب في هامش ب « هو ابن الفارض » ٢ وفي هامشها أيضا « لعله ابن عربي صاحب الفصوص ، المشتمل على مخالفة النصوص »
(٣) حمل القضاء على التكويني وانما هو بمعنى التشريعي ،فحجته داحضة

والموحد يشاهد بإيمانه ويقينه ذاتا جامعة للاسماء الحسنى والصفات العلى ، لها صفة كل كمال[1] وكل اسم حسن ، وذلك يجذبه الى نفس اجتماع همه على الله وعلى القيام بفرائضه ، والطريق بمجموعها لاتخرج عن هذين السبيين ، وان طولوا العبارات ودققوا الاشارات ، فالامر كله دائر على جمع الهمة[2] على الله ، واستفراغ الوسع بغاية التصيحة في التقرب اليه بالنوافل ، بعد تكميل الفرائض ، فلا تطول ولا يطول عليك

وشيخ الاسلام مراده بالجمع الجاذب الى عين الجمع امر آخر بين هذا وبين جمع أهل الوحدة وعين جمعهم ، لا هو هذا ولا هذا ، فهو دائر على الفناء لا تأخذه فيه لومة لائم ، وهو الجمع الذي يدندن حوله ، وعين الجمع عنده هو تفرد الرب سبحانه بالازلية وبالدوام[3] وبالخلق والفعل ، فكان ولا شيء ، ويكون بعد كل شيء ، وهو المكون لكل شيء ، فلا وجود في الحقيقة لغيره ، ولا فعل لغيره ، بل وجود غيره كالخيال والظلال ، وفعل غيره في الحقيقة كحركات الاشجار والنبات ، وهذا تحقيق الفناء في شهود الربوبية والازلية والابدية ، وطي بساط شهود الاكوان ، فاذا ظهر هذا الحكم امحق وجود العبد في وجود الحق ، وتدبيره في تدبير الحق ، فصار سبحانه هو المشهود بوجود من العبد متلاش مضمحل كالخيال والظلال ، ولا يستعد لهذا عندهم الا من اجتمعت ارادته على المراد وحده حالا لا تكلفا ، وطبعا لا تطبعا ، فقد تنبعث الهمة الى أمر وتتعلق به ، وصاحبها معرض عن غير مطلبه متحل به ، ولكن ارادة السوى كامنة فيه قد توارى حكمها واستتر ، ولما يزل ، فان القلب اذا اشتغل بشيء اشتغالا تاما توارى عنه ارادته لغيره والتفاته الى ما سواه ، مع كونه كامنا في نفسه ، مادته حاضرة عنده ، فاذا وجد فجوة وأدنى تخل من شاغله ظهر حكم تلك الارادات التي كان سلطان شهوده يحول بينه وبينها

فاذاً الجمع وعين الجمع ثلاث مراتب (اعلاها) جمع الهم على الله ارادة ومحبة وانابة ، وجمع القلب والروح والنفس والجوارح على استفراغ الوسع في التقرب اليه بما يحبه ويرضاه ، دون رسوم الناس وعوائدهم ، فهذا جمع خواص المقربين

(١) في ب « كل صفة كمال (٢) وفيها « الهم » (٣) وفيها « والدوام »

وسادتهم (والثاني) الاستغراق في الفناء في شهود الربوبية ، وتفرد الرب سبحانه بالازلية والدوام، وان الوجود الحقيقي له وحده، وهذا الجمع دون الجمع الاول بمراتب كثيرة (الثالث) جمع الملاحدة الاتحادية وعين جمعهم ، وهو جمع الشهود في وحدة الوجود ، فعليك بتمييز المراتب ، لتسلم من المعاطب ، وسيأتي ذكر مراتب الجمع والتمييز بين صحيحها وفاسدها في آخر باب التوحيد من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى والله المستعان

قوله « مالكة لصحة الورود » أي ضامنة لصحة ورودها ، شاهدة بذلك مشهودا لها به ، لانها فوق مشاهدة المعرفة وفوق مشاهدة المعاينة

قوله « راكبة بحر الوجود » يعني تلك المشاهدة راكبة بحر الوجود فهي في لجة بحره لا في انواره ولا في بوارقه ، وقد تقدم الكلام على مراده بالوجود ، وأنه وجود علم ووجود عين ووجود مقام ،وسيأتي تمام الكلام عليه في بابه ان شاء الله تعالى

منزلة المعاينة أو مقامها

﴿ من مدارج السالكين أيضا ﴾

قال شيخ الاسلام[1] ﴿ (باب المعاينة) قال الله تعالى (الم تر الى ربك كيف مد الظل) ﴾ قلت المعاينة مفاعلة من العيان ، وأصلها من الرؤية بالعين يقال: عاينه اذا وقعت عينه عليه ، كما يقال : شافهه . اذا كلمه شفاها ، وواجهه، اذا قابله بوجهه ، وهذا مستحيل في هذه الدار أن يظفر به بشر ، واما قوله « الم تر الى ربك كيف مد الظل » فالرؤية واقعة على نفس مد الظل[2] لا على الذي مده سبحانه ، كما قال تعالى (ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا) وقوله تعالى (ألم تر كيف فعل ربك باصحاب الفيل) فهاهنا أوقع الرؤية على نفس الفعل، وفي قوله « ألم تر الى ربك كيف مد الظل » أوقعها في اللفظ عليه سبحانه والمراد فعله من مد الظل ، هذا كلام عربي بين معناه غير محتمل ولا مجمل ، كما قيل في العزّى : [كفرانكِ اليومَ ولا سبحانكِ * اني رأيت الله قد اهانك] وهو كثير في

(١) أي ابو اسماعيل الهروي صاحب المنازل (٢) في ب « نفس هذا الظل

كلامهم ، يقولون : رأيت الله قد فعل كذا وكذا . والمراد رأيت فعله ، فالعيان والرؤية واقع على المفعول لا على ذات الفاعل وصفته ، ولا فعله القائم به

فصل

قال صاحب المنازل ﴿ المعاينة[1] ثلاث (احداها) معاينة الابصار (الثانية) معاينة عين القلب وهي معرفة عين الشيء [2] على نعته على ما يقطع الريبة ، ولا تشوبه حيرة [3] (الثالثة) معاينة عين الروح وهي التي تعاين الحق عياناً محضاً ، والارواح انما طهرت وأكرمت بالبقاء لتعاين [4] سناء الحضرة وتشاهد بهاء العزة ، وتجذب القلوب الى فناء الحضرة ﴾ جعل الشيخ المعاينة للعين والقلب والروح ، وجعل لكل معاينة منها حكما ، فمعاينة العين هي رؤية الشيء عياناً امّا بانطباع صورة المرئي في القوة الباصرة عند أصحاب الانطباع ، واما باتصال الشعاع المنبسط من العين المتصل بالمرئي عند اصحاب الشعاع ، وامّا بالنسبة والاضافة الخاصة بين العين وبين المرئي عند كثير من المتكلمين ، والاقوال الثلاثة لا تخلو عن خطإٍ وصواب ، والحق شيء غيرها ، وان الله سبحانه جعل في العين قوة باصرة كما جعل في الاذن قوة سامعة وفي الانف قوة شامة وفي اللسان قوة ناطقة ، فهذه قوى اودعها الله في سبحانه هذه الاعضاء وجعل بينها وبينها رابطة ، وجعل لها أسباباً من خارج ، وموانع تمنع حكمها ، وكل ما ذكروه من انطباع ومقابلة وشعاع ونسبة واضافة فهو سبب وشرط والمقتضي هو القوة القائمة بالمحل ، وليس الغرض ذكر هذه المسئلة فالمقصود أمر آخر

وأما معاينة القلب فهي انكشاف صورة المعلوم له بحيث تكون نسبته الى القلب كنسبة المرئي الى العين ، وقد جعل الله سبحانه القلب يبصر ويعمى كما تبصر العين وكما تعمى ، قال تعالى (فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) فالقلب يرى ويسمع ويعمى ويصم ، وعماه وصممه أبلغ من عمى البصر وصممه

(١) في المتن وب « المعاينات » «٢» في المتن « معرفة الشيء » «٣» زاد فيه هنا « وهذه معاينة بشواهد العلم » (٤) في ب «لتناغي»

وأمّا ما يثبته متأخرو القوم من هذا القسم الثالث [وهو رؤية الروح وسمعها وارادتها وأحكامها التي هي أخص من أحكام القلب] فهؤلاء اعتقادهم أن الروح غير النفس والقلب(١) ولا ريب أن هاهنا أموراً معلومة وهي البدن وروحه القائم به والقلب المشاهد فيه وفي سائر الحيوان ، والغريزة وهي القوة العاقلة التي محلها القلب ،ونسبتها الى القلب كنسبة القوة الباصرة الى العين، والقوة السامعة الى الاذن، ولهذا تسمى تلك القوة قلبا كما تسمى القوة الباصرة بصراً. قال تعالى (ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب) ولم يرد شكل القلب فانه لكل أحد ، وانما أريد القوة والغريزة المودعة فيه ، والروح هي الحاملة للبدن ولهذه القوى كلها ، فلا قوام للبدن ولا لقواه الا بها ، ولها باعتبار اضافتها الى كل محل حكم واسم يخصها هناك ، واذا أضيفت الى محل البصر سميت بصراً وكان لها حكم يخصها هناك ، واذا أضيفت الى محل السمع سميت سمعاً وكان لها حكم يخصها هناك ، واذا أضيفت الى محل العقل — وهو القلب — سميت قلبا ولها حكم يخصها ، وهي في ذلك كله روح . فالقوة الباصرة والعاقلة والسامعة والناطقة روح باصرة وسامعة وعاقلة وناطقة، فهي في الحقيقة (٢) هذا العاقل الفهم المدرك المحب العارف المحرك للبدن الذي هو محل الخطاب والامر والنهي ـ هو شيء واحد له (٣) صفات متعددة بحسب متعلقاته ،فانه يسمى نفساً مطمئنة ونفساً لوامة ونفساً أمّارة وليس هو ثلاثة أنفس بالذات والحقيقة ، ولكن هي نفسٌ واحدة لها صفات متعددة ، وهم يشيرون بالنفس الى الاخلاق والصفات المذمومة فيقولون : فلان له نفسٌ وفلان ليس له نفس . ومعلوم أنه لو فارق نفسه لمات، ولكن يريدون تجرده عن صفات النفس المذمومة . والمحققون منهم يقولون : ان النفس اذا تلطفت وفارقت الرذائل صارت روحاً . ومعلوم انها لم تعدم ويخلق له مكانها روح لم تكن ، ولكن عدمت منها الصفات المذمومة وصار مكانها الصفات المحمودة فسميت روحا

(١) سقط من ب كلمة والقلب (٢) في ب « ففي الحقيقة » ولعله الصواب (٣) وفيها « وله »

وهذا اصطلاح مجرد والا فالله سبحانه سماها نفساً في القرآن في جميع أحوالها أمارة ولوامة ومطمئنة. وقال تعالى (الله يتوفى الانفس حين موتها) ويدخل في هذا جميع أنفس العباد حتى الانبياء ، وسماها رسول الله صلى الله عليه وسلم روحا على الاطلاق مؤمنة كانت أو كافرة ، برة أو فاجرة ، كقوله « ان الروح اذا قبض تبعه البصر » وقوله « ان الله قبض أرواحنا حيث شاء وردها حيث شاء » وقوله في حديث قبض الروح وصفته : ان كان [1] مؤمناً كان كذا وكذا وان كان كافراً كان كذا وكذا . فسمى المقبوض روحاً كما سماه الله في كتابه نفساً ، وهذا المقبوض والمتوفى شيء واحد لا ثلاثة ولا اثنان ، واذا قبض تبعته القوى كلها ـ العقل ومادونه ، لانه كان حامل الجميع ومركبه

اذا عرف هذا فالمعاينة نوعان: معاينة بصر، ومعاينة بصيرة، فمعاينة البصر وقوعه على نفس المرئي، أو مثاله الخارجي كرؤية مثال الصورة في المرآة والماء ؛ ومعاينة البصيرة وقوع القوة العاقلة على المثال العلمي المطابق للخارجي ، فيكون ادراكه له بمنزلة ادراك العين للصورة الخارجية ، وقد يقوى سلطان هذا الادراك الباطن بحيث يصير الحكم له ، ويقوى استحضار القوة العاقلة لمدركها بحيث يستغرق فيه، فيغلب حكم القلب على حكم الحس والمشاهدة فيستولي على السمع والبصر بحيث يراه ويسمع خطابه في الخارج وهو في النفس والذهن ، لكن لغلبة الشهود وقوة الاستحضار وتمكن حكم القلب واستيلائه على القوى صار كأنه مرئي بالعين مسموع بالاذن ، بحيث لا يشك المدرك في ذلك ولا يرتاب البتة ولا يقبل عذلا

وحقيقة الامر أن ذلك كله شواهد وأمثلة علمية تابعة للمعتقد ، فذلك الذي أدرك بعين القلب والروح انما هو شاهد دال على الحقيقة ، وليس نفس الحقيقة ، فان شاهد نور جلال الذات في قلب العبد ليس هو نفس نور الذات الذي لا تقوم له السموات والارض ، فانه لو ظهر لها لتدكدكت وأصابها ما أصاب الجبل، وكذلك شاهد نور العظمة في القلب انما هو نور التعظيم والاجلال، لا نور نفس المعظم ذي الجلال والاكرام ، وليس مع القوم الا الشواهد والامثلة العلمية

(١) في ب فان كان

والدقائق [1] التي هي ثمرة قرب القلب من الرب وانسه به واستغراقه في محبته ، وذكره واستيلاء سلطان معرفته عليه ، والرب تبارك وتعالى وراء ذلك كله ، منزه مقدس عن اطلاع البشر على ذاته أو أنوار ذاته ، أو صفاته أو أنوار صفاته ، وانما هي الشواهد التي تقوم بقلب العبد كما يقوم بقلبه شاهد من الآخرة والجنة والنار وما أعد الله لأهلها ، وهذا الذي وجده عبد الله بن حرام يوم أحد لما قال : واها لريح الجنة ! اني أجد ريحها دون أحد . ومن هذا قوله صلى الله عليه وسلم « اذا مررتم برياض الجنة فارتعوا — قالوا وما رياض الجنة ؟ قال : — حلق الذكر » ومن قوله « ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة » فهو روضة لاهل العلم والايمان لما يقوم بقلوبهم من شواهد الجنة حتى كأنها لهم رأي عين ، واذا قعد المنافق هنالك لم يكن ذلك المكان في حقه روضة من رياض الجنة ، ومن هذا قوله «الجنة تحت ظلال السيوف» فالعمل انما هو على الشواهد ، وعلى حسب شاهد العبد يكون عمله . اه المراد منه

أصول الفقه عند الظاهرية

وهي المسائل التي جعلها الامام ابو محمد علي بن حزم مقدمة لكتابه (المحلى)

وعناوين المسائل من زيادة المنار

مآخذ الاسلام ودلائله

﴿ مسألة ﴾ دينُ الاسلام اللازمُ لكل أحد لا يؤخذ الا من القرآن ، أو مما يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إما برواية جميع علماء الامة عنه عليه السلام — وهو الاجماع — واما بنقل جماعة عنه عليه السلام — وهو نقل الكافة — واما برواية الثقات واحدا عن واحد حتى

(١) في ب « الرقائق »